مقياس الاخلاق

محاضرة ادبية اخلاقية

القاها الدكتور زويمر بالاسكندرية

ثمنها ٥ مليمات

صدرت من المطبعة الانكليزية الاميركانية ببولاق مصر

electronic file created by cafis.org

مقياس الاخلاق

محاضرة ادبية اخلاقية القاها الدكتور زويمر بالاسكندرية

موضوعي هو مقياس الحياة الادبية . ان القوة الحاكمة في العالم الآن ليست القوة السياسية ولا القوة المالية بل القوة الادبية . لما كان غوردن في بلاد الصين ايام ثورة البوكسير كان يقود الجيوش بلا سيف ولا رمح بل بعصا في يده وذلك لان قوته الادبية تغلبت عليهم فاخضعتهم لارادته . انه متى ملكت القوة الادبية قلوب الحكام جعلتهم سلاطين بالمعنى الحقيقي . ان الحكومة الجديدة بالصين لا ينتظر لها ثباتاً الا اذا اتخذت لها قوة ادبية فعالة . وما يصدق على اعظم امبراطورية في العالم يصدق على كل فرد

اذاً ما هو مقياس القوة الادبية وما هو المحك الذي نقيس عليه اخلاقنا ؟ اريد ان اجلس معكم تحت قدمي اعظم معلم ادبي لاتعلم كيف كان يقيس اخلاقه. اني لا آتي بكم الى يسوع ولكن الى واحد سار في خطوات الرب يسوع . اني آتي بكم

electronic file created by cafis.org

الى بولس الرسول الذي يعتقد الكثيرون انه وان لم يؤسس الديانة المسيحية فهو اعظم رجل اشتغل فيها. ان كل شيء قد تلاشى من وعظ ورسائل وقصائد ولكن رسائل بولس لا تزال مقروءة ومسموعة في جميع انحاء العالم قال بعضهم ان بولس كان للديانة المسيحية كما كان ابو بكر وعلي للديانة الاسلامية فقد كان محبوباً ومبغضاً. ممدوحاً ومذموماً. محبوباً من البعيدين عنه ومكروهاً من اقرب الناس اليه. وقد كتب في احدى رسائله ما اعتبره مقياساً حقيقياً للآداب فكتب الى الكورنثيين يقول «ثم يسأل في الوكلاء لكي يوجد الانسان امينا. واما انا فاقل شيء عندي ان يحكم فيّ منكم او من يوم بشر. بل لست احكم في نفسي ايضاً. فاني لست اشعر بشيء في ذاتي لكنني لست بذلك مبرراً. ولكن الذي يحكم فيّ هو الرب» (١كو ٤:٢—٤)

اننا اذا فحصنا هذه الاقوال نجد ان الحكم ليس لبولس ولا لي انا ولا لاعتقادي ولا لسلوكك ولا لاخلاقك وقد ذكر لنا اربع محاكم

(المحكمة الاولى) الرأي العام . انه لا يهمني علاقتكم بهذه الكنيسة او تلك ولا تمسككم بهذه العقيدة او غيرهـا ولكن الذي يهمني هو موقفكم بازاء هذه المحاكم. ان كل واحد منا يحاكم يومياً امام محكمة الرأي العام. ان لكل واحد منكم صيت وصيت كل واحد يتوقف على افكار الذين حوله مما يرونه فيه ويسمعونه منه ويروونه عنه. ان محكمة الرأي العام امر لا مفر لنا منه فهي كالاظلال للاشباح لا تفارقها ابداً . وكما ان الظل تتوقف هيئته على كيفية وقوع النور على الشبح هكذا اخلاقنا. ان الظل امر خارجي وكثيراً ما لا يدل على حقيقة الشبح فقد يكون مشوهاً او طويلاً او قصيراً بدون مناسبة للشبح الاصلي ولذلك ليس المثل الجاري — صوت الخلق صوت الحق — هو الحق بتمامه. لانه كثيراً ما يتخذ الرأي العام الغرض والمحاباة ثوبه فيشوهان صيت شخص هو بالحقيقة شريف ان الرأي العام قد يكون متحزباً ومحابياً فيهتف اليوم اوصنا وغداً أصلبه. اصلبه . مرة كان محام ذو وجه مشوّه يترافع في قضية ضد محام آخر فلما عجز خصمه على رد برهانه بالدليل

اعتدى على الشخصيات فالتفت الى هيئة القضاء وقال — يا حضرات القضاة الافاضل كيف يمكن لمشوّه الوجه ومعوج الانف ومحني الذقن ان يقول الحق الصريح المستقيم. فانتصب ذاك في وجهه كالعامود وقال بشجاعة ان وجهي هذا الذي ترونه مشوهاً كان يوماً ما جميلاً كوجهه وقد كان لي اخت صغيرة اضطرمت النار في ثيابها فالقيت نفسي عليها وهي تحترق ونجيتها من مخالب الموت فاصبت بحروق مخطرة استدعت عملية جراحية شوهت وجهي وجعلته كاخلاق هذا المحامي المشوه السجايا (استحسان وتصفيق حاد). انكم لو كنتم في المحكمة لكنتم صفقتم للاول كما صفقتم للثاني ايضاً لان الرأي العام ليس دقيقاً في حكمه بل متقلباً مع الاهواء. لان بولس نفسه كان محكوماً عليه من الرأي العام واليوم نجد الرأي العام الى جانبه. اذاً ليست محكمة الرأي العام بالحكم (الذي ترضى حكومته) العادل

(المحكمة الثانية) محكمة الاصدقاء. هذه ادق واشرف من الاولى. ان لكل شخص اصدقاء حتى ذاك الذي نقرأ عنه انه

electronic file created by cafis.org

كان مرفوضاً من الناس كان له اصدقاء . ان يسوع كان له اثنا عشر تلميذاً . وثلاثة منهم كانوا الاصدقاء الخصوصيين ومنهم واحد اتكأ على صدره . وكان لبولس اصدقاء ولكنه لم يثق بحكمهم . ان روزفلت وتافت كانا صديقين حميمين ولكن الآن لا يرضى احدهما بالآخر ان يكون حكماً عليه . اننا لا نقدر ان نعتمد على حكم اصحابنا فينا لان حكمهم متساهل جداً كما قيل ان عين المحب عن كل عيب كليلة. كما اننا لا نعتمد على حكم الاعداء لان حكمهم قاس علينا حيث قيل وعين العدو تعد المساوي . فان كنا لا نعتمد على حكم الاصدقاء ولا الاعداء في الامور الظاهرة المكشوفة لهم فكيف يمكننا الاعتماد عليهم في الامور المخفية عن عيونهم وهذا يأتي بنا الى

(المحكمة الثالثة) وهي محكمة الضمير . هل منا من ينكر ان ليس له ضمير ؟ يمكن للانسان ان يشك في قواه العقلية ولكنه لا يشك ابداً في وجود قاض داخله اسمه الضمير. قال شكسبير اعظم شعراء الانكليز — ايها الضمير انك سبباً في جعل الاكثرين منا جبناء لان حكم العالم وحكم اصحابنا

لا يحسبان شيئاً في باب الدقة والصواب بالنسبة لحكم الضمير — انه لا يمر بنا يوم دون ان نسمع صوت تلك المحكمة . هنا قاض عيناه كلهيب نار وميزانه لا يخل مقدار شعرة . انه موجود على الدوام وحاضر معك في كل مكان . ولا تقدر ان تتخلص منه لحظة من الزمان. قال احد الشعراء الاميركان (تشارلس ستابس) ما معناه

جلست وحدي مع ضميري (حيث لا اعتبار الزمن) وتحادثنا في امر حياتي الماضية التي قضيتها في ارض الايام والسنين فوجدت نفسي مضطراً ان اجيب على اسئلته الموجهة اليّ وان اعطي حساباً عنها في الابدية التي لا مفر منها. فمرت امام ناظريّ خيالات الاعمال السيئة وركضت امام عيني بكيفية مزعجة ومخيفة تلك الاشياء التي ظننتها ماتت من زمن طويل . اني رأيت كل ماضيّ واقفاً امامي مرعباً ومخيفاً بينما كنت جالساً وحدي مع ضميري في الديار التي لا اعتبار للزمن فيها . ثم استيقظت من احلامي وزالت تلك المناظر من امامي ولكني علمت ان هذا انذار آتٍ اليّ من تلك الاماكن القصية

electronic file created by cafis.org

واتعشم اني لا انساه الى الابد وان اظل ذاكراً اياه في هذه الارض قبل ان اصل الى حفرة القبر فلا اجد لي مناصاً من تلك الرؤى المزعجة ولذلك جلست مع ضميري مرة اخرى في الارض التي للزمن فيها اعتبار واجتهدت ان اصوّر امامي المستقبل في تلك البلاد التي لا زمن فيها وقد ايقنت ان الحكم المستقبل سيكون مخيفاً جداً ان لم اتدبر له الآن واتقيه الآن واتخذ عدتي له الآن

اذا اردتم ان تعرفوا قوة الضمير فاذكروا تاريخ داود. فقد كان قلبه مع الله ولكنه لما تعرض للتجربة وسقط واتاه النبي وقال له. انت هو الرجل. سقط على وجهه حزيناً. اقرأوا مزمور ٥١ حيث يشهد على نفسه انه مذنب مخطئ ذلك لان صوت ضميره حكم عليه هذا الحكم العدل. وبولس يكتب في الاصحاح السابع الى اهل رومية انه اول الخطاة. وفي انينه وشكواه دليل على شعوره العميق بقوة الضمير في اصدار الحكم. ومع كل هذا ليس الضمير بالحكم العادل لانه حكم انساني وكل شيء انساني ضعيف وناقص من طبعه اذا

electronic file created by cafis.org

كان ضميري حكماً عادلاً فكذلك يكون ضميرك وضمير كل انسان وبهذه الكيفية يجب ان تتوافق احكام الضمائر كلها. والواقع ليس كذلك. فاردأ ما كتب واشر ما اضل كثيرين هو ما كتبه بعضهم عن اعتقاد راسخ انهم يكتبون بوحي ضمائرهم. ان بولس كان يسير بوحي ضميره لما كان يضطهد المسيحيين. منذ مائة سنة كانت ضمائر الناس مرتاحة الى الاسترقاق ولكن اليوم لا يتجاسر احد ذو ضمير حي ان يجوز الاسترقاق فقد اصبح من المنكرات المحرمات. وفي الاجيال الوسطى كانت الناس من يهود ومسيحيين ومسلمين يبررون الكذب فصرحت علماء اليهود بجوازه في ظروف خصوصية. وقالت علماء الطغمة اليسوعية ان الغاية تبرر الواسطة وجاء في كتب الحديث نقلاً عن نبي العرب حديث لا اصدق صحة نقله انما هو حديث متفق عليه فيه ان النبي قال يجوز الكذب في ثلاثة. في الحرب وللمرأة وفي اصلاح ذات البين وحسب فكري ان محمداً كان ارفع من ان يقول هذا القول ولكني ما اتيت به الا لابرهن لكم ان حكم الضمير

لا يوثق به لانه ما هو الا نتيجة التربية العقلية وخاضع لتأثيرات الوسط المحيط به وعوائده واخلاقه القومية مضافاً اليها الوراثة والاكتساب. قال فيلسوف الماني اسمه شبونهاير قولاً لا اوافقه عليه تمام الموافقة انما لا يخلو من حقيقة قال . اذا حللنا الضمير نجد خمساً منه خوفاً من الناس وخمساً خرافات وخمساً محاباة وخمساً بطلاً والخمس الخامس عادة . لما اتلو عليكم قولاً كهذا تتصورون امامكم ضمائر غيركم ولكن اليست ضمائركم مثل ضمائر غيركم؟ فلا عجب اذا قال بولس «اما انا فاقل شيء عندي ان يحكم فيّ منكم» (١كو٤:٣) ماذا تكون قيمة اعمال الانسان الادبية اذا كان يقتصر فيها على مجرد حكم ضميره ؟ ان اعماله تكون ممقوتة وحكمه الادبي يبعد عن الصواب ويكون مثله كمثل من يعتقد ان الذراع قيمته عشرين سنتيماً وبناء على هذا الاعتقاد الغاش يبيع اقمشته بهذا المقياس الناقص. فهل يتغير الحق بتغير الاعتقاد انه يوجد مرض يسمى العمى اللوني . فهل اعتقاد المصاب به يغير حقيقة الالوان؟. ان كان لا وهو الحق فاعتقادنا الغير صائب لا يبررنا امام محكمة الحق والعدل . اننا كل مساء عندما

نصلي تقف امام كرسي القضاء فالعقل يسمع القضية والذاكرة تؤدي الشهادة والضمير يحتج ويقنع والقوى العقلية تدافع ومحبة النفس واحترام الذات يبعدنا عن باب الفردوس ويضللنا في اودية الخطأ وملائكة انساننا الجديد تقف حارسة الابواب بسيوف متقلبة من نار. ان محكمة الضمير لم تكف داود ولا بولس ولا يوحنا بنيان لما بيناه من نقائصها اذاً لا بد من محكمة اخرى اليها تستأنف كل قضايانا ومنها يصدر الحكم الذي لا نقض فيه ولا ابرام وهذه هي

(المحكمة الرابعة) محكمة الله. انها المحكمة الاخيرة واننا نحاكم يومياً امامها ايضاً وهي لا تحابي ولا تقبل الوجوه ولا تخفى عليها خافية. قال المرنم مز ١٣٩: ٢٣ اختبرني يا الله واعرف قلبي امتحني واعرف افكاري. جاء في رؤ ٢٠: ١١ ان الديان جالس على عرش ابيض عظيم والمعنى في هذه العبارة ان العرش جلاله والعرش الابيض استقامته والعرش العظيم سلطانه. فهل تؤمنون بهذه المحكمة العتيدة ان تكون في اليوم الاخير؟. فآمنوا بها الآن. لان ما يصدق على الجماعات يصدق على

الافراد ايضاً فان الله اليوم يدين العالم جماعات وافراداً. ان تاريخ حياة كل فرد منكم كتاب يحكم به الله عليه وكل عمل يعمله يسطره فيه ولا تمحوه قوة في الوجود. فما هي اخلاقك؟ قال مودي قولاً لن انساه. قال ان الاخلاق هي ما تكون عليه وانت في الظلام والمعنى في ذلك هو ان الاخلاق هي ما تكون عليه وانت بعيد عن عيون الرقباء وانت منفرد لا يراك احد الا الله. ولكن اعلم ان عين الله ليست ناراً فقط كما يقول الكتاب بل هي محبة وشفقة ولذلك اعطى كل الدينونة للابن. فالمسيح سيجلس على عرش الدينونة. انه كانسان مثلنا مجرب في كل شيء ما خلا الخطية سيجلس لدينونة البشر. انه يوجد متسع عظيم في رحمة الله لا نجده في اصحابنا واقرب الناس الينا فانك عندما تقع في تجربة طاحنة. وتبتعد عنك كل الناس. فيسوع لا يبتعد عنك بل تجده قريباً لتعزيتك وتشجيعك وقد قيل عنه قصبة مرضوضة لا يقصف وفتيلة مدخنة لا يطفئ. انني اسر بالبعد عن محكمة الرأي العام والاصدقاء والضمير واوجه نفسي الآن لمحكمة ربي وحبيبي يسوع وان خامركم شك

في استعداده الآن لمساعدتكم وتخليصكم من القضاء المريع فالتفتوا الى مريم المجدلية وبطرس واللص التائب

(الامر الثاني) اسمحوا لي ان اسألكم ما هي قيمة هـذه المحاكم عندكم ؟

(١) انه يوجد في الاسكندرية كما في كل مكان اناس لا يبالون الا بالرأي العام فيصلون ويصومون ويأتون الزكاة والحسنات ليس لشيء الا لكي يمجدوا من الناس. يوجد تلامذة لا يدرسون الدرس الا لاجل العلامات . كثيرون يشتغلون بالسياسـة ويصرخون مصر للمصريين او اليابان لليابانيين او اميركا للاميركيين وما ذلك الا لكي يروا اسماءهم مكتوبة بحروف كبيرة على صفحات الجرائد . ان اناساً مثل هؤلاء قانونهم الادبي هو — تجنب ظهور الشر . لا تؤذ احداً . كن اميناً في اعين جميع الناس — ولكن ليس هذا هو القانون الحق فانه اقل واحط وادنى قانون ومقياس للحياة الادبية .

(٢) يوجد من لا يبالون الا بافكار اصدقائهم . فالمشورة عندهم هي الحكم النهائي الذي لا مرد له. فهؤلاء لهم افكار لكن

electronic file created by cafis.org

ليس لهم اعتقاد . انهم يستطيعون المجاملة والموافقة ولكنهم لا يبدون حكماً ولا يقدرون ان يحبوا او يبغضوا وما هم الا ابناء الفرصة الحاضرة . انهم مثل دوّارة الريح بالمقابلة مع البوصله (الابرة المغنطيسية) ولكم في رجلين مثل ايراسموس ولوثيروس احسن تمثيل لهذا النوع فايراسموس كان رجلاً عالماً ولوثيروس بسيطاً الواحد كان غنياً والآخر فقيراً . الواحد كان ذا مركز عظيم والآخر راهباً مجهولاً ولكن لوثيروس كان ثابتاً كالطود الراسخ وايراسموس كان متقلباً مثل دوّارة الريح فقد كتب ايراسموس للوثيروس يقول

اني كنت دائماً حريصاً . اني افضل ان اموت عن ان اسبب قلقاً للحكومة . اننا لما لا نقدر ان نفعل خيراً يجدر بنا ان نصمت . ان دودة مثلي لا يجوز لها ان تقف ضد الحكام الشرعيين . يجب علينا ان نحتمل كل شيء خير من ان نسبب اضطراباً في العالم . انه توجد اوقات فيها يجب علينا ان نخفي حتى الحق»

فرد عليه لوثيروس يقول — هنا اقف لا استطيع ان افعل

electronic file created by cafis.org

شيئاً غير هذا فليساعدني الله — فترون ان الاول كان معتمداً على مشورة اخوانه والآخر على مشورة الله. ان بولس لم يرض بحكم الناس ابداً

(٣) يعتمد البعض على حكم ضمائرهم وقد تبرهن لكم ضعف الضمائر البشرية وخضوعها للمؤثرات الخارجية التي تجعل حكمها غير صائب

(٤) حكم بولس في الامر هو ان خير شيء عنده ان يحكم فيه من الرب اذ قد نظر الى الله على العرش الابيض العظيم. في ذلك اليوم تعلن كل الخفايا وتحضر امام انظار الجميع كل المستورات

فاسمحوا لي ان اسألكم في الختام سؤالين الاول هل يلزمني ان اجعل يسوع صديقي ؟ هل اقول ماذا يقول الناس عني او ماذا يقول الاصحاب او ماذا يقول لي ضميري ام ماذا يقول يسوع نفسه ؟ الثاني هل اذا اتخذته صديقي اخجل من ذكر اسمه والتباهي به امام الآخرين ؟

electronic file created by cafis.org

ان الجواب على هذين السؤالين سهل جداً اذا كان لي اخلاق ادبية حقيقية فاني استطيع ان اتخذ يسوع صديقي واستطيع ان اتباهى بصداقته امام جميع الناس . فانه ليس صديقاً لي ولكم بل انه اعظم واخلص صديق لمصر وللمصريين ولجميع الناس في كل مكان وزمان. فهل تتخذونه صديقكم اليوم؟

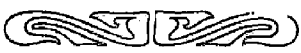

electronic file created by cafis.org